# الفصل الثالث

## سقوط طرابلس.. والهجرة

## ٢٠ أغسطس ٢٠١١

obeikan.com

obeikan.com

## سقوط طرابلس

عند مساء يوم ٢٠ أغسطس ٢٠١١ ليلاً وبعد إفطار رمضان كانت معى مجموعة من الشباب أولادى وزقربائى فوق سطح المنزل الذى أجرته فى سيدى عبدالجليل كانت الإضاءة تنعكس على الشارع ونحن فى الظلام ودخلت ارتال من السيارات المسلحة إلى القرية قادمة من جنزور باتجاه المدينة طرابلس.

كنا مسلحين ببنادق ولم نطلق النار لأن القوة غير متكافئة فهم يسيرون بمدافع ورشاشات وصواريخ آر بى جى وصواريخ جراد.

مرت الارتال ولم تطلق النار ولم يعترضها أحد.

كانت هناك خيانة لم نطلع عليها إلا فيما بعد. فلقد كان اللواء البرانى شكال قائد كتائب الأمن المكلفة بحراسة القيادة وحراسة طرابلس على تواطؤ مع المتمردين.

وتحدث بإسهاب فيما بعد عن دوره فى المؤامرة وقام بتسريح جنود كتيبة محمد المقريف الأمنية وعددهم ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف جندى وضابط ومنحهم إجازات وهم المكلفين بحماية طرابلس.

الجميع لم يتوقع سقوط طرابلس بهذه السهولة باستثناء المتمردين الذين يعرفون موقف حليفهم البرانى ولهذا تقدموا بكل طمأنينة.

وكان يساعدهم حسب ما علمت فيما بعد ١٢٥٠٠ اثنى عشر ألف وخمسمائة ضابط وجندى من دول الناتو ومن الدول المتحالفة معها حتى من قطر والإمارات وتركيا والأردن.

واستمر الأحرار من المواطنين يقاومون فى بوسليم والهضبة الخضراء.

عند الصباح كانت الدنيا هادئة فى مناطق جنوب وغرب طرابلس رأت العائلة أن ترجع إلى المنزل وذهبت أنا إلى المكتب كانت الطريق خالية من المارة.

اتصلت بأحمد رمضان أسأله فى بعض الشئون. رد على وقد أخبرنى اللواء فتحى ناجى أحد ضباط القلم فيما بعد عندما التقيت به فى مصر بعد أربع سنوات قائلاً لى (لقد كان اتصالك بالقيادة آخر اتصال يصلنى من أحد).

كما اتصلت بالأستاذ على الحسناوى وزير الرقابة الذى اتصلت به ليلة البارحة وعلمت أنه محاصر من المتمردين.

سألت على الحسناوى فابلغنى بأن الجيران منعوهم من دخول المنزل واتصلت بالدكتور محمد بوعجيله أمين المواصلات وكان ببيته ونصحنى بالبقاء بالبيت أفضل رجعت إلى البيت بعد منتصف النهار وهى آخر مرة أزور المكتب وقد غاب ذلك اليوم الموظفون باستثناء السائق محمد التبو وهو رجل حر حدثت ضده مواقف فى بلدته بالرحيبات واحرقوا منزله وانتقل إلى المدينة واستمر معى فى المكتب إلى النهاية بل وبقى بعدى بالمكتب.

كانت الأسرة فى المنزل (بالسراج) تعد طعام الافطار وكانت سمعة القادمين الجدد سيئة لا يحترمون كبيراً ولا صغيراً ولا لهم دينا ولا ملة ولا أخلاق ينتهكون الأعراض والحرمات وينهبون كل شىء.

عند رجوعى للبيت قالت لى ابنتى.. يا أبى إن اخوتى قالوا لو هاجمنا المتمردون سنقوم أول شيء بقتل البنات مخافة العار.. كيف يا أبى يقتلوننا؟

اجبتها لا لا يمكن أن يصل لكم أحد بسوء ما دمت حياً اطمئنى.

إنه موقف مؤلم الأولاد يريدون خوض معركة ضد المتمردين ليموتوا معاً ولن يتركوا إخواتهم يعبث بهن العابثون.. وأنا محير بين أن أخوض بهم معركة خاسرة غير متكافئة أو 'حتفظ بهم إلى معركة قادمة نحن نخطط لها ونحدد مكانها وزمانها.

لقد خاض هلال الجرم بأسرته معركة فى بنغازى ودافع عن حريمه وكانت بناته يلقمن له البنادق وقتل عدة أفراد من المهاجمين وقتل شهيداً عليه رحمة الله وكذلك

فعل مؤيد الواسع الذى قاتل وحيداً إلى أن استشهد فى منزله.

إلا أننى كنت أزن الأشياء بالعقل والمستقبل يحتاج للرجال لتحرير ليبيا.

كانت المساجد تضج بالتكبير كأننا فى أيام الحج بعرفة.

جاءنى ابنى زهير ليبلغنى بأن الجيران ابلغوه بأن هناك مجموعة من المسلحين جاءوا يسألوا عن واالدك.

كان جيرانى من جادو يكبرون للناتو وجرفوا فيما بعد مزرعتى ليقتسموها انهم جيران سوء.

كنت أقلب الأمور على جنباتها ولم اتحسس طعم الإفطار ولم أشارك الأسرة فى القرار يجب أن نخرج من البيت.. هكذا قررت ولكن إلى أين؟

كان لصهرى مجموعة من الأقرباء فى مزرعة قريبة من مزرعتنا رأى أن نذهب إليهم ونبيت عندهم بقية الليلة ونفكر عند الصباح.

ذهب يستطلع الطريق ورجع قائلا إن الطريق شبه آمنة هناك بوابة أو اثنتين ما إن ترفع لهم يدك حتى يفسحوا لك الطريق أو نضرب لهم منبه السيارة فيظنونك منهم.

شحنت الأسرة فى عدة سيارات صغيرة لأن السيارات الكبيرة ملفتة للنظر وتركت السيارات الكبيرة الكريزر وجيب فى البيت وثلاث سيارات للمكتب جديدة وحزان مياه محمول والبيت بكل أثاثه والمكتبة بكل كنوزها وخيمة جميلة للضيوف.

خرجنا ليلا ومررنا بالبوابات التى يحرسها مجموعة من الشباب الملتحى يطلقون النار فى الهواء والمساجد تضج بالتكبير لقد وضعوا بها مسجلات زودتهم بها تركيا.

شغلنا منبه السيارات وظن الشباب أننا نحييه وأننا معهم فافسحوا لنا المجال.

وصلنا إلى بيت أقرباء صهرى فى مزرعته انزعج الرجل وخاف وكان متضايقا من وجودنا فى بيته وكذلك نساؤه.

كانت الساعة بعد منتصف الليل لم ننم ولم نذق السحور بالرغم من أن الرجل – بارك الله فيه – أعد سحوراً متواضعاً من المكرونة.

ماذا نفعل؟.. وأين نتجه؟

وكيف نحمى النساء من هؤلاء الوحوش لقد توقعت أن العقيد القذافى له خطة للحرب الشعبية (حرب العصابات) وسبق وأن اقترحتها عليه وقد يكون قد خطط لها حتى بدون اقتراحى.

علينا الذهاب إلى الجنوب مروراً ببنى وليد هكذا قررت.. وعند الصباح أرسلت بعض الشباب الذين كانوا معى من أقربائى لاستطلاع الطريق إلى بنى وليد.

رجعوا ليخبروا أن الطريق سالكة ويحتلها الجيش إلى ما بعد مطار طرابلس.

تركنا سيارة كريزر صالون عند مضيفنا لأنها تلفت النظر علمت فيما بعد بأنه باعها وحشرت العائلات فى ست سيارات صغيرة وركب مجموعة من الشباب فى سيارة كريزر صالون يستطلعوا أمامنا الطريق.

خرجنا من طرابلس باتجاه سوانى بن يادم لننعرج من على الجسر إلى المطار ومنه إلى طريق ترهوته يوم ٢٢/ ٨/ ٢٠١١ إلا أنه عندما وصلنا إلى فوق جسر سوانى بن يادم وجدنا اشتباكا بين المتمردين والجيش وقد سيطر المتمردون على أعلى الجسر.

وجعلوا فيه بوابة مقفولة بالحجارة والإطارات كان الرصاص ينهمر من الجانبين قفز أحد الشباب وأزاح الإطارات وسرنا بسرعة ولم نتوجه إلى جهة المطار لأن الرصاص في الطريق أكثر كثافة مع أن إحد السيارات توغلت بين المتحاربين.

سرنا بسرعة متوجهين نحو العزيزية ولحقت بابنى سيف لانبهه بأن أمامنا المتمردون وهم يتدفقون بسياراتهم المسلحة.. علينا أن ندخل أى طريق متوجه للشرق باتجاه طريق ترهوته.

وجدنا طريقا زراعياً متجها للشرق سرنا معه وفى كل لحظة نتوقع أن نجد

المتمردين يحتلونه أو أن الطريق ينتهى دون الوصول إلى طريق ترهوته. كانت أيادينا على الزناد وأى هجوم سينهينا.

وانفرجت أساريرنا عندما وصلنا إلى طريق ترهوته ووجدنا مجموعة من الجنود تحمل الراية الخضراء يتمركزون فى الموقع.

حيينا الجنود ورفعنا لهم أيدينا علامة التشجيع وجاوبونا برفع أيديهم واتجهنا إلى ترهوتة.

كانت الطريق شبه خالية قليلا ما تعترضنا سيارة فى الاتجاه المعاكس.

لقد خرجنا من طرابلس ولا نعلم كيف تكون العودة لها ولا متى.

كانت أفكارى مشغولة على محمد الذى انقطعت أخباره أما زيد أصغر الأولاد ١٤ سنة كان يقود سيارتى ومعى أمه وبعض إخواته لم يتزحزح ولم يرتبك عندما دخلنا تقاطع النيران فوق جسر سوانى بن يادم.

أما البيت فكنت أتوقع أن يحتلوه ويحتفظوا بالمكتبة أما الأثاث والسيارات فالعوض على الله فيها.

وقد نصحنى ابنى سيف قبل ذلك بحمل السيارات للجنوب وكل ما نخشى عليه إلا أننى لم أوافقه لأننى لم أكن اتوقع سقوط طرابلس بهذه السهولة.

كما طلب منى ابنى سعيد أن يحمل العائلات إلى مصر ويشترى لهم شقة هناك ويبعدهم عن الخطر فلم أوافق قائلا له إن عائلاتنا ليست أهم من العائلات الليبية سنبقى هنا ومصيرنا مصير الليبيين.

لقد تخلفت سيارة صهرى حامد التى تحمل أسرته وقد دخل باتجاه نيران الجيش من تحت الجسر كنا مشغولين عنه.

أشرفنا على بنى وليد وعند النصب التذكارى لمعركة (وادى دينار) حيث تثبت صورة كبيرة لعبدالنبى بالخير على النصب وقفنا نجمع بعضنا ونتفقد السيارات

والسيارة التى دخلت مرمى النيران فى سوانى بن يادم.

تجمع السيارات وحمدنا الله على سلامة الجميع ورصدتنا بوابة بنى وليد فارسلت سيارة للشرطة لتقودنا إلى البوابة.

مشينا مع الشرطة وفى البوابة أمروا بتفتيشنا ولما نزلت من السيارة عرفنى أحد الضباط إذ أننى كنت أقدم برنامجا فى التليفزيون عن القبائل وأحرضها عن القتال ضد الناتو فسلم علي. وأمرهم بعدم تفتيشنا.

فطلبت منه أن يوضح لنا الطريق التى تحمل إلى منزل ناجى ريش البعباع وهو ووالده من أصدقائى منذ زمن.

فتركوا تفتيشنا ولم يفتشونا وسار أحدهم بسيارته أمامنا حتى أوصلنا إلى منزل ناجى ريش.

ناجى هذا هو ابن الشاعر ريش البعباع ربطتنى به علاقة صداقة وكنت أزوره فى بنى وليد كما يزورنى فى طرابلس وبدر ورافقنى فى رحلات الصيد إلى الحمادة الحمراء رفقة المرحوم يونس بالخير ومسعود مرسال.

كما أن ناجى كانت.علاقتى به جيدة. حتى عندما خرجت من مكتب شئون الصحراء غاضبا بدون سيارة أرسل لى ناجى ٦٠٠٠ ستة آلاف دينار اشتريت بها سيارة وارجعت له المبلغ مشكورا بعد عدة سنوات.

كما كان كريما مع كل من أرسله إليه لمساعدته فى بنى وليد.

استقبلنا بحرارة وابلغته أننا نحتاج إلى البنزين ونواصل سيرنا إلى براك.

قال ناجى لا داعى لبراك فابقوا معنا (اللى بينا بيكم) وحلف باليمين أن ننزل من السيارات.

دخلت العائلة والبنات عند النساء ودخلت أنا والأولاد إلى مربوعة ناجى التى وجدت بها أكثر من ثلاثين شخصا بعضهم عرفته وبعضهم لم أعرفه.

فلقد غيرت الحرب والمأساة سحنة الرجال إذ وجدت عبدالله منصور ذلك الشاب الأنيق الباسم دائماً والمتفائل دائما ملتحى غيرت اللحية ملامحه وبعض الذين أعرفهم. وعند الفطور حضر معنا المرحوم اللواء يوسف بومهاره آمر معسكر بنى وليد والذى طلب منا زيارة المعسكر تلك الليلة.

افسح ناجى ريش منزل أحد أبنائه لإقامتنا. كانت بنى وليد تعانى من نقص كل شىء. الكهرباء مقطوع، والغاز لا يوجد، الناس تطبخ طعامها على الحطب.

بعد الفطور اخذنى ناجى إلى المعسكر حيث استقبلنا اللواء يوسف بومهارة على ضوء شمعة. كان الظلام حالكا فنحن فى آخر الشهر والهلال يخرج قبل الفجر بقليل.

والمعسكر مملوء بالبشر الذى يستفسر والذى يطلب التسليح والذى يطلب الذخيرة والذى جاء ليعرف ماذا يجرى.

أخرج لنا اللواء يوسف طاولة صغيرة وعدة كراسى فى ساحة المعسكر ويرجع كل مرة إلى مكتبه المضاء بشمعة. وفى ذلك الظلام سلم على مجموعة كبيرة من الناس واغلبهم جنود وضباط عرفت منهم ضابط يدعى المحتوت من حرس القائد وقيل أن الهنشيرى رحمه الله سلم على هو الآخر ولكننى لم أميزه فى الظلام.

جلس بجانبى المحتوت وتحدثنا. غير أننى لم أسأله عن القائد وتبين أن مجموعة الرتل لاحقة بالعقيد فى سرت.

وأن العائلة مرت من بنى وليد باتجاه غات بعد اتصالات مع الرئيس بوتفليقه لاستقبالها.

■■■

رجعنا من المعسكر. كانت الناس تموج هائمة لا تعرف السبيل.

فى اليوم الثانى بعثت الأولاد إلى السوق ليشتروا لنا طعاما وما يلزم للبيت وفتح اللواء بومهارة للمواطنين مخازن الأسلحة ليتسلحوا ويأخذوا الذخائر.

كان الوقت عصرا فهاجم الناتو المعسكر وهو القريب من السوق واشتعلت النيران فى المخازن وصارت التفجيرات تدوى فى المنطقة والدخان يتصاعد.

قتل فى الهجوم أكثر من ١٥ خمسة عشر مواطنا كانوا يتزودون بالسلاح من المخازن ورجع الأولاد الذين حمدنا الله على سلامتهم.

ولم يجدوا شيئا يشترونه فالمواد الغذائية شبه معدومة ويكفى أن سيارة جاءت بكمية من البصل تبيع الكيلو بـ (٣٥) ديناراً أما البنزين فكان (٢٠) لتراً اشتريناها بـ (١٥٠) مائة وخمسين دينارا ولما تكاثر المهاجرون إلى بنى وليد وصلت إلى ١٠٠٠ ألف دينار.

وأرسلت صهرى حامد الشيبانى إلى طرابلس ليرى ماذا حدث للبيت والسيارات وعند المغرب في اليوم الثانى جاءنا ليخبر أن البيت سرق وأن الخيمة مزقوها والسيارات أخذوها.

وجاء معه ابنى محمد وكانت فرحتنا به كبيرة فلقد انسحب مع المنسحبين من بدر وشارك فى معركة العجيلات.

ولما توجه إلى طرابلس أوقفته بوابة للمتمردين وأخذوا سيارته وسيارات كل من معه وبقيت العائلات فى الطريق.

حمدنا الله على سلامته وفرحت به أمه وأخوته وأحسسنا بأننا تجمعت العآئلة والمال كما يقولون مخلوف.

وكان ابن ناجى المدعو عز الدين وهو شاعر ويتولى إدارة إذاعة بنى وليد المحلية.

واستمعنا إليه ينشر خبر مقتل خميس القذافى ولما استطلعنا الخبر قيل إن خميس كان يسير فى رتل من مقاتليه باتجاه بنى وليد فتعرض لكمين فى منطقة (وشتاته) بين بنى وليد وترهونه وأصيبت سيارته بصاروخ (آر بى جى) احترقت السيارة وقتل هو وابن عبدالله السنوسى المسمى محمد.

طلبت من عز الدين أن لا يشيع الخبر إذ لا داعى لإحباط معنويات الجنود فخميس كان مثال العسكرى المقدم والمنضبط كان ذلك فى ليلة القدر.

وفى الليلة التى تليها جاءنى عز الدين يطلب منى مرافقته إلى حيث يقيم سيف الإسلام القذافى. ذهبت معه إلى منزل من منازل أهالى ورفله الذى رحب بى صاحبه إيما ترحيب وادخلنى لأجد فى المربوعة مجموعة من المواطنين مجتمعين مع سيف الإسلام عرفت منهم على الأحول منسق القبائل أثناء الأزمة والذى قاد اجتماعها فى طرابلس والتهامى خالد مدير الأمن الداخلى واللواء أحمد البقار توفى أخيراً فى معركة بنى وليد عليه رحمه الله واللواء يوسف بومهارة آمر معسكر بنى وليد وعدة أشخاص آخرين عزيت سيف فى أخيه ووجدته يتحدث عن كيفية الدفن غداً فاقترحت عليه عدم إشهار دفنه فيجب أن يدفن بسرية تامة حتى لا يشاع عند جنوده حقيقة موته.

وكان سيف يخرج ويعود ولا يستقر فى مكانه. قال لى على الأحول إننا محرجين مع هذا الولد فلو قتل فى بنى وليد ستصبح فضيحة لنا ونتمنى أن يخرج من بنى وليد.

وفعلا قد خرج بعدها سيف الإسلام من بنى وليد وبقى فى ضواحيه حيث هاجمهم الناتو واستشهد ٢٥ خمسة وعشرين من رفاقه منهم ابن صديقنا ميلاد الفقهى وجرح سيف الإسلام حيث قطعت أصابعه.

دخل سيف الإسلام إلى المربوعة بعد أن كان يتحدث مع أحد الأشخاص خارجها وطلب منى تحريك الصيعان للقتال.

اجبته أن بينى وبينهم الآن غريان والزنتان وهم أعداء يسيطرون على الجبل وهم يحتاجون إلى السلاح والذخيرة وحتى الوقود للسيارات.

وقلت لسيف هل عندكم مال ازودهم به أو وقود للسيارات أو أسلحة ندعمهم بها كنت أظن أن لكم خطة قتالية نشتغل من خلالها وتتحرك فى حرب عصابات.

خرج سيف الإسلام ثم عاد إلينا وجلس وهو يقول المفروض أن نغير هؤلاء

الضباط الكبار فى السن يوسف بومهارة وأحمد البقار ونستبدلهم بالشباب هنا قلت له ياأخى هذه افكارك التى أوصلتنا إلى هذه المرحلة تقيل ضباط وقفوا مع والدك إلى الآن لكبر سنهم وتكافئهم بهذا. إن أفكارك وشبابك هى التى أوقعتنا فى هذا المشكل.

ووقفت دون أن أتناول السحور الذى أحضره صاحب البيت.

كنت فى أشد الغضب لأننى صدمت إذ لا توجد أى خطة للدفاع عن الوطن.

كان سيف الإسلام يسمر عينيه فى وجهى وأنا أقف وأقول له أنكم تمخضون فى الماء.. وخرجت ولم ألتق به بعد ذلك. وقد تم دفن خميس رحمه الله فى شبه سرية فى بنى وليد صباح اليوم الثانى وبعد خروج سيف الإسلام من بنى وليد ومهاجمة الناتو له اتخذ من أحد قبائل الحطمان خبيرا له فى الصحراء ليوصله إلى حدود الجزائر أو النيجر ولكن الخبير كان خائنا فاتفق مع الزنتان وأوصله لهم ليلا حيث قبضوا عليه وأودعوه السجن عندهم حيث لا يزال حتى الآن ٢٠١٥.

رجعت إلى المنزل الذى تقيم به الأسرة فى آخر الليل وكلفت ابنى سعيد وصهرى حامد باستطلاع طريق الشويرف فلقد قررت السفر إلى الشاطئ بعد أن يئست من ايجاد خطة للدفاع عن الوطن فى بنى وليد فقد أجد بريق آمل فى الشاطئ.

فى الليلة الثانية هاجم الناتو مخازن السلاح فى بنى وليد وتفجرت الصواريخ فى كل اتجاه وتساقطت على البيوت وسقط بعضها بالقرب من البيت الذى نسكنه وتفجر مخزن ذخيرة فى مدخل بنى وليد من جهة طرابلس واستمرت التفجيرات إلى ساعة متأخرة من الليل وأصبحت السماء مضاءة كأنها الألعاب النارية وترى أضواء السيارات تتحرك جيئة وذهابا تستطلع الأمر أو تحمل الجرحى.

خرجنا من البيت وجلسنا فى العراء مخافة أن يصيب البيت أحد الصواريخ فيتهدم علينا.

استمرت الفوضى والتفجيرات إلى ساعة متأخرة من الليل.

عند الصباح أصبحت المدينة خالية لأن الناس سهروا وأصبحوا نياما.

وفى المساء رجع سعيد وحامد يرافقهم شاب مقرحى صديق ابنى سيف أصر على أن يرافقنا إلى الشويرف حيث يدعى على حسين.

لم أبلغ ناجى باننى قررت السفر إلى الشاطئ وعند الصباح الباكر من أول أيام عيد الفطر امتطينا سياراتنا وتركت له رسالة فى البيت أشكره فيها على حسن ضيافته وكرمه واستودعه الله.

لقد مرض بعدى ناجى وحمله ابنه عز الدين إلى تونس ثم إلى ألمانيا وتوفى عليه رحمة الله وبوفاته فقدت صديقاً صادقاً فى زمن قل فيه الوفاء.

■■■

الطريق المعبد يتجه من بنى وليد إلى غريان أو إلى مزده. وفى كلاهما يسيطر المتمردون. واختار الأولاد طريق النهر الذى يقع شرقى بنى وليد وسبق لابنى سيف أن سار معها عدة مرات.

خرجنا من بنى وليد وتوجهنا إلى طريق النهر الذى ما إن وصلناه فى منطقة بها غابة من شجر الطلح فى أعالى وادى بى وجدنا كتيبة عسكرية مرابطة هناك بسياراتها واسلحتها أنه الموقف الحرج. ترى يتبعون من..؟ قد يكونوا من المتمردين سبقونا على الطريق.

إن أى معركة نخوضها معهم خاسرة لأننا حوالى عشرة أشخاص نملك بنادق كلاشنكوف وهم كتيبة مدججة بالسلاح.

كانت هذه الاختيارات تدور فى مخيلتى ونحن نسير باتجاههم.

وما إن وصلناهم حتى انفرجت أساريرنا إنهم كتيبة من الجيش حيونا وحيياناهم ما إن وصلنا إليهم حتى ركبوا سياراتهم وآلياتهم وتتبعونا.

إنه موقف حرج فقد يقصفنا الناتو لأننا فى رتل عسكرى مع سيارات مدنية قد

يظنها العدو رتل القذافى.

ومن الغريب نخفف السرعة ليتجاوزونا فيخففون سرعتهم معنا أو يتوقفوا فى الطريق ينتظروننا.

وفى إحدى وقفاتهم سألنى الضابط عن طريق قرزه فاجبته أى طريق تفرق إلى اليمين تتوجه إلى قرزه.

عندما كنا فى الظروف الآمنة نتباشر بهذه الغابات من الطلح نتجمع فى ظلالها ونوظب صيدنا ونطبخ طعامنا وشواءنا ونعد أكواب الشاى على جمر الحطب اللاهب.

واليوم نمر عليها خائفين نتلفت ونتوهم إن فى كل طلحة قناص أو مجموعة من الإرهابيين يترصدون بالمارة.

حلقت فوقنا طائرة قادمة من الطريق المعاكس بقيت انتظر صواريخها فى كل لحظة إلا أن الله سلم.

وقبل الشويرف بخمسين كيلو متر توقف الرتل العسكرى كما تخلفت قبله السيارة التى يقودها زهير ابنى وترافقه أمه وبعض أفراد الأسرة.

رجعت له إحدى السيارات التى وجدته وقد انفجر اطار السيارة فغيروها معه.

استمرينا فى السير حتى وصلنا إلى الشويرف وإلى منزل مضيفنا على بن حسين.

ولحق بنا زهير ومن معه.

سمعنا انفجارا وتصاعد الدخان لاشك أن الطائرة قصفت رتل العسكريين الذين خلفناهم.

■■■

استقبلتنا أسرة الرجل بكل حفاوة وصدفة وصل الكهرباء الذى كان منقطعاً عن القرية عدة أيام فتفاءلوا بمقدمنا.

جاءت للترحيب بنا مجموعة من رجال المقارحة واستفسرنا منهم عن الأحوال.

تبين أن الناس منقسمين كل يعمل حسب تفكيره هناك من يرفع علم المتمردين وهناك من لا يرفع أى علم.

وهناك من يصرف وقته فى الاستيلاء على مواقع الشركات التى تركتها وانصرفت.

ورأيت عند العشية أحدهم يجر خزان مياه يربطه بالحبال ويجره على الأرض يصدر أصواتا مزعجة وهو يصطدم بالأحجار.

لا يوجد بالشويرف أى خطة للدفاع أو منظومة مدافعه.

■■■

عند الصباح واصلنا السير إلى أبراك أخذنا الطريق المعبد المعتاد فالمتمردون لم يصلوا إلى هنا.

وصلنا بوابة البرطمة وهى بوابة عسكرية تشرف على مشروع زراعى جميل وعلى يمين الطريق تقع استراحة جميلة على مرتفع تشرف على المشروع.

استقبلنا الضابط المشرف على المشروع ببشاشة وعرض علينا الإقامة فى الاستراحة لقضاء القيلولة أو لعدة أيام.

شكرته على كرمه وكانت الاستراحة مغرية لو كانت الظروف عادية.

وواصلنا السير.

وصلنا إلى براك تلك الواحة الجميلة التى تغنى بها الشاعر والمجاهد محمد بن عامر المقرحى عندما هاجر إلى جنوب الجزائر من جور الطليان واستقر فى واحة (وارقله) التى يقول عنها.

مانكش كيف براك يا وارقله

هى تمرها تاليس وانتى دقله

إلا أن الموقف ينطبق عليه قول الشاعر الموريتانى حين يقول:

أمربع الأنس ذا أم تلك أوهامه

لا هو هو ولا الأيام أيامه

فالنخيل قد جف جريده وبقيت جذوعه مغروسه فى الأرض فالمياه التى كانت عل يوجه الأرض غارت بسبب مشروع النهر الصناعى فالآبار سحبت المياه وغارت وعطش النخيل ومات.

إن منظر النخيل يؤلم القلب.

سار بنا دليلنا باتجاه قرية (قيره) حيث يقيم المقارحة وتجاوزناها إلى مجموعة بيوت يقيم بها قبيلة (العزمه) وهى إحدى قبائل المقارحة والصيعان يقولون إن بوعزوم جد العزمه هو ابن سيدى محمد أبوصاع جد الصيعان فهم أخوتهم.

وبالرغم من ذلك فهناك الشاعر غيث العزومى والشاعر على بن الحاج تربطنى بهما علاقة ود وصداقة منذ عام ١٩٦٣ عندما كنت أقدم برنامج الأدب الشعبى فى الإذاعة الليبية وكان يقدم لى غيث وعلى بالحاج ونور الدين العزومى رحمه الله واخوه بلقاسم ليسجلوا قصائدهم.

استبقلنى الحاج غيث وأولاده فى منزلهم بالترحاب كما استقبلت السيدة زوجته وزوجات أبنائها زوجتى وأولادها بكل لطف وترحاب فجزاهم الله خيراً.

سألت عن الأحداث ماذا يجرى فى الجنوب؟ وهل هناك استعدادات للدفاع عن المنطقة؟.

وكانت الإجابة مخيبة للآمال.

فقالوا لى إن مسعود عبدالحفيظ وهو القائد العسكرى للمنطقة استدعى مشائخ القبائل وقال لهم إننى متفق مع الفرنسيين أن يبقى الجنوب تحت الحماية الفرنسية على أن ينضم إليه سرت كميناء على البحر وتتولى عائلة سيف النصر إدارته كما كانت أيام المملكة.

وهاجم الناتو بطيرانه مخازن الأسلحة فى سبها ومنزل عبدالله السنوسى فى قبره وقتل عدة أشخاص.

أخبرونى أن العقيد أرسل عبدالله السنوسى ومنصور ضو إلى مسعود يطلب منه الاستعداد لاستقبال العقيد فى الجنوب ومواصلة الكفاح.

فقال لهم أين هو العقيد؟ انه انتهى وعرض عليهم العرض الفرنسى فرجع منصور وعبدالله السنوسى للعقيد فى سرت.

عشرة أيام كاملة قضيتها فى الشاطئ أقلب أخماساً فى أسداس.

الثقة صارت معدومة من الجميع ولا تستطيع أن تفكر بصوت عالى ولا أن تشارك أحدا الرأى.. سألت عن اللواء على كنه فقيل لى إنه هاجر للنيجر. وسألت عن اللواء الريفى الشريف فقيل لى هو الآخر هاجر. سمعت بأن عبدالله السنوسى وصل إلى قبره فأرسلت ابنى سيف إليه لالتقى به ونفكر ما العمل؟.

إلا أنهم أجابوه بأن عبدالله غير موجود. وعلمت فيما بعد أنهم يشكون فى الرجل الذى جاء مع سيف فى أنه مع المتمردين. المواطنون هاجموا المشاريع ونهبوا كل شىء الإبل والأغنام والسيارات والمضخات والجرارات والدوائر الزراعية.

لا أحد ينهى أحد. مكاتب المشاريع نهبت الشركات النفطية نهب كل ما تملك فى المواقع من سيارات وبيوت متنقلة وأثاث وحتى أنابيب الضخ عطلوها. إنهم يفعلوها فى وطنهم كما يفعل الغزاة.

مجموعة التوارق الذين استقطبناهم من مالى والنيجر فى ثمانينات القرن الماضى وجاءوا زرافات ووحدانا مطرودين من الجفاف والاضطهاد فى بلدانهم استقبلناهم وادخلناهم فى البلاد ووفرنا العمل لمن يستطيع العمل والدراسة لمن يرغب فى الدراسة والتحقت مجموعات منهم بالقوات المسلحة.

كان يقود مجموعة منهم شاب يسمى محمد ناجم يحمل رتبة عقيد.

فما أن اشتدت المعارك حتى انسحب بمجموعته وبما بحوزتهم من أسلحة وذخائر وآليات وسيارات ووصلوا بها إلى مالى.

هناك انضم محد ناجم إلى مجموعات الإسلاميين فى شمال مالى الذين اعلنوا جمهورية أزواد فى شمال مالى وعينوا محمد ناجم وزيرا للدفاع الأمر الذى جعل فرنسا تتدخل وتحطم هذه الجبهة وهذه الجمهورية وتسيطر على شمال مالى بمباركة الجزائر التى سمحت لطائرات فرنسا بالعبور للأجواء الجزائرية.

وعلمت فيما بعد من صديق صحراوى جاءنى من تمنراست بجنوب الجزائر عندما كنت بالجزائر وأخبرنى أن قطر استدعت فى عام ٢٠١٠ إياد غالى رئيس المجموعة الإسلامية وهو من الشباب الذين احتضنتهم ليبيا ودربتهم وفى قطر استقبله مسئولون من قطر وقدموه لضباط مخابرات فرنسية وطلبوا منه أن يقوم بارسال مجموعة من الشباب إلى غات وأوبارى ويقوموا بمظاهرات تتدخل بسببها فرنسا فى الجنوب الليبى كما تتكفل فرنسا وقطر بدفع كميات من الأموال لهم.

ورجع إياد إلى ازواد وعرض على قيادات شمال مالى بان يرسل هو عشر سيارات معبأة بالشباب وطلب من هجى أحد قادة الشمال بتجهيز عشرة سيارات ويرسلونها إلى غات وأوبارى تنفيذا للمخطط الفرنسى القطرى وقال إنهم وعدوه بدفع مبلغ كبير من المال.

قال له هجى كم سيدفعون لنا..؟ ذكر له رقما لم يذكره لى الراوى.. فقال له هجى لقد صرف علينا القذافى أكثر من هذا بمئات المرات واستقبل عائلاتنا وشبابنا وطلابنا فهل نجازيه بهذا الجزاء.

واستطاع الهجى أن يفشل المشروع أوردت هذا ليعلم الغافلون أن مخطط ضرب ليبيا يعد له منذ عدة سنوات قبل ٢٠١١.

ولم يكن التوارق الماليين وحدهم فإن قبائل التبو التى تقيم فى جبال تيبستى وتتبع

حكومة تشاد زحفت نحو الشمال مؤيدة مجموعتها التى تعيش فى ليبيا واستطاعت أن تستولى على الويغ والقطرون ومرزق وتراغن وتصل إلى أطراف سبها.

كل هذا حدث فى مدة وجيزة اتضح لى عند وصولى إلي الجنوب وتبين لى أنه لا يوجد هناك أى استعدادات للدفاع عن الوطن وأن أغلب الشباب القادر على حمل السلاح اخبرنى العقيد على الشايب أحد المسئولين العسكريين فى الجنوب أنهم تم شحنهم للشمال للقتال فى محاور مصراته والبريقه وسرت.

وحتى الوحدات العسكرية لم يبق بها إلا كبار السن الغير قادرين على القتال.. أمام هذه الأوضاع قررت الهجرة التى لم تكن تخطر ببالى أبداً.. وحتى عندما اقترح على ابنى سعيد قبل عدة أشهر أن يحمل العائلة والأطفال إلى مصر ويشترى لهم شقة ليبتعد بهم عن الأحداث رفضت ذلك فنحن ككل الليبيين والعائلات الليبية لسنا أحسن منها.

ارسلت ابنى سيف يرافقه مضيفنا إبراهيم غيث العزومى وشخص ثالث خبير فى المنطقة وله علاقات بتوارق غات وخاصة المهربين منهم.

أرسلتهم ليكتشفوا لى الطريق.. فى اليوم الثانى لذهابهم اتصل بى سيف يطلب منى القدوم إلى غات اليوم لأن أوبارى قد يصلها المتمردون فى أى لحظة ويقطعون الطريق إلى غاث.

جهزت سيارة يقودها ابنى محمد وتوجهت إلى سبها حيث منزل صهرى حامد الشيبانى ليرافقنا.. وتركت الأسرة فى البيت الذى افضاه لنا على غيث ابن غيث العزومى لنسكنه وهو بيته الخاص فله الشكر والتقدير.

وصلت سبها التى تغيبت عنها عدة سنوات لقد توسعت وامتلأت ساحاتها بالمزارع والعمارات والفيلات جبل بن عريف الذى كان الشعراء يتغنون به صار واسطة المعمار وقد شاب اعلاه من التفجيرات فلقد كانت به مخازن للأسلحة والذخائر

قصفها الناتو فتفجرت وأصابت الصواريخ البيوت المجاورة وغير المجاورة وسقط عدة ضحايا.

كان صهرى يسكن مع والده فى مزرعة يكدح لزراعتها وقد انقطع الكهرباء فجفت المياه وذبلت الزراعة.

كان محمد الشيبانى وهذا هو اسمه نذر جميع أولاده للدفاع عن الوطن فقاتلوا فى كل الجبهات مع أنه فى العهد الجماهيرى سجن ظلماً وتم تعذيبه من قبل رجال الأمن فى سبها لأنه استضاف شخصا رافقه فى الطائرة وهو لا يعرفه وتبين أن الشخص من الإرهابيين.

المهم لم أنزل من السيارة ورافقنى حامد وواصلنا السير باتجاه غاث.

كانت الطريق موحشة بالرغم من أنها تنحدر مع وادى الآجال حيث الخضرة والنخيل والبيوت.

كانت المشاريع موقوفة والعمارات التى تحت الإنجاز خالية تنتصب بجانبها الرافعات.. الجبل يحف الطريق من اليسار وجبال الرمال العالية تحف الوادى من اليمين هذا للمتجه غربا.

سمي وادى الآجال لأن قطعان بقر الوحش كانت توجد به وتسمى (آجال) ظنوا ان اسمه من الأجل الموت فتم تغييره إلى (وادى الأمل والحياة) تقع الكثير من القرى فى الوادى واهمها (جرمه) تلك المدينة التى اسسها (الجرمنتيون) وانشأوا بها حضارة وقطعوا الصحراء الكبرى باتجاه النيجر ولازالت قبيلة (زرما) تقود النيجر حتى الآن وهى تحريف لاسم (جرما).

# العوينـات

مررنا بقرية العوينات وهى قرية هادئة فى وسط الصحراء تقع فى وسطها قلعة بناها الإيطاليون هى اليوم مركز لشرطة العوينات.

يسكن هذه القرية التوارق وبعض الأهالى. واشتهرت العوينات بشجرتها الغريبة المباركة. وهى شجرة غير معروفة ولا مثيل لها من أشجار المنقطة، ضخمة الجذوع يقول السكان إن أى شخص يكسر منها غصنا يصاب بأذى كأن تكسر رجله أو يده وتورق فى الشتاء بعكس الشجر. ويذكرون لك أسماء الذين اعتدوا على الشجرة وكسروا منها فأصيبوا بكسور كأن تنقلب بهم سياراتهم أو يسقطون من عل أو يصابون بمرض.

ولهذا تجنب الجميع المساس بهذه الشجرة التى مررت بجانبها فى رحلتى هذه وهى لا تزال شامخة كان فروعها الضخمة تحتضن العوينات ولا أدرى إن كانت يد العبث قد طالتها أخيراً أم لا:

كانت تتجاذبنى الأفكار. ماذا يخبئ القدر لى فى مستقبله المجهول؟ وماذا يخبئ القدر للأسرة التى تركتها والأطفال ورائى؟.

أوقفتنا بوابة يقيمها التبو بجانب أوبارى. التبو ليس هنا موقعهم فهم فى جهة القطرون وربيانه أما أوبارى فلقد كانت بها أربع أسر زمن المملكة فقط يرأسهم والد كوكنى وداى الذى أمره الملك إدريس بالبقاء باوبارى عندما جاء لاجئا فى بداية الستينيات من القرن الماضى ولحقت به أربع عائلات بقيت باوبارى.

قدمنا أوراقنا لأحد الأفراد المسلحين وسمح لنا بالمرور بدون تعب وواصلنا السير.

وبعد أوبارى لاحت لنا غابة الطلح التى كانت متنزها لأهل أوبارى خاصة عندما يسيل الوادى الذى يرويها.. أشجار الطلح الشبيهة بأشجار الأرز فى لبنان لها من العمر مئات السنين لها ظل وارف يؤوى إليها المتنزهون والمسافرون.

لو يحكى الطلح لروى لنا مئات القصص التاريخية. ولذكر لنا آلاف الرجال الذين استظلوا بظله ذات يوم. ولروى لنا آلاف الحكايات التى حكوها وهم فى ظلاله.. والمواقف التى شهدها هذا الطلح فى سنوات الخير وفى سنوات الشر وفى الدول المتعاقبة التى يسود فيها الأمن والتى يختل فيها.

وكم شهد مراحيل المجاهدين المهاجرين الذين يتبعهم الطليان ويبطش بهم.

لقد جئت هذه الغابة عام ١٩٧٩ مع مجموعة من الأصدقاء وبتنا بها وكان الشعراء يحيون لنا تلك الليلة المقمرة والنار تستعر إلى الفجر.

كانت بقايا كوانين النار تحت كل طلحة وكانت أرجل الغزلان تتناثر حول الطلح تنبى على أن الصيادين مروا من هنا.

واليوم ها أنا أمر وحيدا اتلفت مخافة العدو الذى كان أغلبه من رجال أعرفهم سابقا وأبناء أصدقاء لى.

لقد تبين أن العداوة هى الأفعال وليست الأجناس وأن الإنسان يحمل فى نفسه عناصر الخير وعناصر الشر.

ولكم يحزننى أن عناصر الخير كانت محروسة بالأمن وهيبة الدولة ولما انفلتت انفلت الشر من أعماق الناس.

لقد كانت تعترضنا الشاحنات محملة بأثاث الشركات ودواليب وصالونات وكراسى وأشياء أخرى قد لا يحتاجها الذى أخذها إلا أن رغبة التملك طغت على الناهبين.

ظهر على يميننا مشروع (تهاله) المشروع الذى كنت ضمن فريق من العمل الذى خطط لإنشائه.. وكان يقود الفريق العقيد خليفة حنيش رحمه الله.. وذلك

لاستقرار التوارق البدو. لقد ازدهر المشروع حتى اصبح يصدر البقوليات والدلاع إلى طرابلس. وانشئت فيه مصانع للخشب بفضل مديره رئيس عرفاء يدعى (زكره).

وجاء مجموعة من وجهاء التوارق يشتكون من القائم على المشروع ويريدون ابعاده لأنه جعل به استراحات وأحواض سباحة.

حاولت إقناعهم بأن هذه الأشياء ستبقى لكم وهو سيرحل ولكنهم أصروا على تحويله.

واليوم أرى المشروع جافا لا أثر فيه للزراعة وهناك مجموعة من النوق تتجول فيه تلتهم ما تطول رقابها من أغصان الأشجار.

وإلى وراء المشروع يتمركز جبل الجنون أو كما يسمى (كاف الجنون) الذى تروى عنه عشرات القصص. أبطالها من الجنون وأن لا أحد يستطيع الصعود إليه فتمنعه الجنون. وقد زرته فى فريق عام ١٩٧٩ وصعدنا إلى حوالى ثلثه لأن أعلاه منحدر كالسور صعب المرتقى وكان وقتها الطريق بجانبه غير معبد وهو طريق للقوافل المتوجهة إلى غات وأحياناً إلى ما بعد غات اقدز فى النيجر أو تينبكتو فى مالى وكان من المخطط أن تعبد الطريق التى تم تعبيدها ويقام فندق صحراوى بجانب الجبل للمواطنين والسواح.

إلا أن الأحداث اجهضت مشاريع الخير.

# غات فى الأفق

استقبلنى ابنى سيف وجماعته بعد أن اجتزنا جبل الجنون.

كان جبل أكاكوس يحيط بنا من جهة الجنوب ذلك الجبل الذى يضم تاريخ ليبيا القديم من رسومات ونقوش نادرة.

قيل إن عاملا ليبيا كان يشتغل فى شركة للسياحة فاخرجوه من العمل. فغضب وقام بأخذ قنينة زواق وطمس بها الرسومات. عمل أرعن يدل على حس وطنى متدنى.. كما قام الأجانب عن طريق بعثاتهم التى يقولون أنها تبحث فى الاثار فكانوا يسرقون اللوحات وينسخونها بطرق تسىء للآثر.

دخلنا بوابة غات بعد أن اجتزنا المطار وخضعنا للتفتيش ونحن لازلنا داخل الوطن ودخلنا المدينة.

على يمين الداخل تقع قلعة غات الشهيرة تلك القلعة التى لم أعثر على تاريخ تشييدها وهى تقع على قطعة من جبل أكاكوس استخدمها الإيطاليون أيام احتلالهم للمنطقة واستخدمها الفرنسيون أيام احتلالهم للجنوب. وكبار السن يذكرون فى الليالى المعمرة الجنود الفرنسيين من جنوب تونس والجزائر يعزفون الناى فى هدأة الليل يبث شجونهم وأحزانهم وشكواهم من الغربة ومساهمتهم فى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل فقدوا فيها الكثير من أصدقائهم وأحبابهم.

غات هذه المدينة العريقة آخر مرة زرتها عام ١٩٨١ ولى فيها أصدقاء وكان لنا فيها فرع لمكتب شئون الصحراء يديره النقيب الوافى الفقى مع مجموعة من توارق المنطقة وكانوا يستقبلون توارق مالى والنيجر المتسللين عبر الحدود والذين يقضى

عليهم العطش والجوع فى الطريق فيبحثون عنهم ويجمعونهم ويحولونهم إلى المخيمات المعدة لهم لتأهيلهم وتوزيعهم على المشروعات والحرف التى يجيدونها وعلي المدارس التى تناسب مستوياتهم.

غات هذه المدينة الصحراوية ذات التاريخ المجيد عندما كان سكان ما وراء الصحراء يتشوفون إلى غات لجلب أرزاقهم وملابسهم إنها إحدى عواصم الصحراء الكبرى.

دخلنا المدينة عشرات الفيلات الحديثة والمتاجر لم يعد للمدينة القديمة أى أثر ساقنا دليلنا إلى منزل أحد التوارق قال إنه يتعامل معه فى التهريب.

تناولنا عنده عشاء متواضعاً ونمنا فى بيته.

وعند الصباح بعد الفطور توجهنا إلى بوابة الحدود الجزائرية فى (تين الكم).

إن جميع التوارق فى الصحراء الكبرى أما يعرفوننى معرفة شخصية أو يعرفوننى بالسماع.

هذا التارقى الذى بتنا عنده أبدى استعداده أن ينقلنى إلى الجزائر حتى بدون المرور على البوابات. إنه خبير فى الطريق. إلا أننى شكرته وأبلغته أن نجرب. شققنا وسط غات ومررنا بقرية (البركت) وهى اصبحت متصلة بغات وقد احتلها الفرنسيون عام ١٩١٣ لمدة شهرين ثم انسحبوا بناء على اتفاق مع الطليان.

وبعد (البركت) قرية صغيرة تكاد أن تكون ملتصقة بها تسمى (الفيوت).

وبجانب الفيوت شاهدنا بقايا سيارتين شاحنتين محترقتين ولهما قصة.

إذ عندما قامت الثورة الجزائرية عام ١٩٥٤ ووقفت ليبيا شعبا وحكومة معها تدعمها كما دعمتها كل الشعوب العربية.

لم تمتد الثورة إلى الجنوب فى مناطق الصحراء وهنا قرر الفرنسيون إنشاء جمهورية باسم (جمهورية الصحراء) تضم جنوب الجزائر وشمال مالى والنيجر وحتى منطقة الصحراء فى موريتانيا والساقية الحمراء ووادى الذهب وغات من ليبيا وهنا اقترحت

الحكومة الليبية على قيادة الثورة الجزائرية بان ترسل كتيبة من الثوار ترافقها كتيبة من الجيش الليبى إلى غات حيث يتسلل الجزائريون إلى الصحراء الجزائرية ويقومون بعمليات عسكرية ضد فرنسا.

وهكذا تبنت المشروع كتيبة إدريس بقيادة العقيد نورى الصديق ويساعده الملازمان يوسف القزله والغمارى.

حيث تمركزت فى غات لحماية الجزائريين وكانت هناك شركات فرنسية فى الأراضى الجزائرية تأتى إلى غات لشراء لوازمها من التموين وهى متعودة على ذلك.

وجاءت شاحنتان يقودها جزائريان يرافقهما مهندس نفط فرنسى مدنى.

وبعد أن اشتروا احتياجاتهم خرجوا من غات ولحق بهم الثوار الجزائريون فأحرقوا الشاحنتين وقتلوا الفرنسى الذى وضعوا جثته فى إحدى حقاف الجبل المطل بدون التنسيق مع الجيش الليبى واحتجت فرنسا على ليبيا لأن العمليّة تمت فى الأراضى الليبية وهاجمت بالطيران قرية (إيسين) كما هاجمت الكتيبة الليبية وسقط عدة شهداء وأعلن الجيش الليبى فى مجلة الجيش أنهم أسقطوا طائرة فرنسية وكتب عنها محيى الدى عميور وزير الإعلام السابق للجزائر كلاما غير صحيح وادعى أن هناك معركة نشبت بين الفرنسيين والثوار وانتصر الثوار وأحرقوا الشاحنات.

ويقول عميور أنها فى الأراضى الجزائرية.

المهم مررنا على حطام الشاحنات ووصلنا إلى البوابة الليبية وهى ثلاثة أو أربعة بيوت متنقلة تغزوها الرمال.

وضع لنا التأشيرة أحد رجال الجوازات وواصلنا السير.

البوابة الجزائرية مبنى أنيق للجوازات والجمارك تجاوره استراحة للمسافرين.

وجدت مجموعات من الليبيين الفارين من الحرب لم أعرف منهم إلا الصحفى الدكتور شاكير والوزيرة هدى بن عامر التى أعلن المتمردون أنهم قبضوا عليها ذلك اليوم.

قدمت جوازى الدبلوماسى للجوازات وكان الضابط شاب نشط استقبلنى فى مكتبه وحدثته عن مساهمتى لمدة أربع سنوات فى لجان المناصرة للثورة الجزائرية.

وكان هو يتحرك ويرسل أوراقاً ويستقبل أوراق ومن ضمن ما أرسل صورة جواز سفرى ولم يأبه كثيراً بحديثى إذ أنه من مواليد الاستقلال فلا يعرف الكثير عن الثورة الجزائرية ولم تعد تعنيه كثيراً.

ثم أمرنى بالانتظار ليلتهى بغيرى.

خرجت من مكتب الجوازات وذهبت للاستراحة لأسلم على الوزيرة هدى وزوجها وأولادها وكذلك شاكير.

ثم رأيت شجرة طلح تبعد على الاستراحة بحوالى ٥٠٠ متر توجهنا إليها وجلسنا فى ظلها.

جاءت سيارة صحراوية يقودها تارقى يمكن عمله من حرس الحدود الجزائرية وسألنى بعجرفة لماذا تجلسون هنا؟

قلنا الاستراحة مشغولة وفضلنا الجلوس هنا.

قال: إن هذه أرض جزائرية!.

أجبناه نحن نستظل والأرض تبقى جزائرية.

اندفع بسيارته بقوة اثار الغبار الذى وصل إلى وجوهنا وانحدر إلى الوادى.

هذه الطلحة لها قصة هى الأخرى.

ففى بداية الحرب العالمية الثانية وكان الإيطاليون يتمركزون فى غات واعلنوا التعبئة العامة وأرجعوا الجنود المنفصلين من الخدمة إلى العمل وكان من بينهم ابن عم والدى محمد الشيبانى الصويعى والذى استقال من الجيش الإيطالى برتبة (شنباشى) قبل الحرب بسنوات طويلة وتفرغ للتجارة أرجعوه للجيش وكلفوه باحتلال هذا الموقع.

أخذ معه مجموعة من الجنود التوارق وهاجموا الموقع وقتلوا مجموعة من الجنود الفرنسيين وجرح ضابط الموقع الذى صعد إلى هذه الطلحة رافضا الاستسلام إلا لقائد المجموعة. فجاءه محمد الشيبانى وانزله من الطلحة وحمله إلى غات حيث تلقى العلاج وأحسن معاملته كأسير واستولوا على الموقع.

وانتصرت فرنسا وحلفاؤها فى الحرب ورحل الإيطاليون وقبض الفرنسيون على محمد الشيبانى وأودعوه السجن وقرروا إعدامه إلا أن ذلك الضابط الفرنسى الأسير حمى محمد الشيبانى من القتل وأمر بإخراجه من غات ومصادرة أملاكه، وارتحل محمد الشيبانى من غات بل من كل فزان حيث يسيطر الفرنسيون وأوصلوه محروسا إلى مزده الحد الفاصل بين فزان المحتلة من قبل فرنسا وطرابلس المحتلة من قبل الإنجليز.

وأرسل جدى صميده مجموعة من الإبل يقودها عمى خليفة وابن عمه بلقاسم بن عون لنقل محمد الشيبانى إلى الجوش حيث اختارته القبيلة شيخا لها.

وبقى محمد الشيبانى بالجوش إلى سنة ١٩٥٦ عندما خرجت فرنسا من فزان إذ عاد إلى سبها وقد حكى هذه القصة لى رحمه الله ومجموعة من القصص أيام العهد الإيطالى وما لاقاه الليبيون.

وهو جد صهرى حامد الشيبانى الذى يرافقنى الآن ولما حكيت له الحكاية قال إنه لم يسمعها من جده.

عند المساء اقتربنا من الاستراحة حيث تضج بالناس والسيارات والجند والشرطة وجلسنا بجانب سيارتنا وفرشنا حصيرا لا أدرى من أين احضره الشباب وتناولنا قليلا من الطعام الجاف.

وفى أول الليل جاءت حافلة لتنقل الذين تحصلوا على التأشيرة إذ أن الدخول بالسيارات ممنوع عند اخوتنا الجزائريين.

ركب الذين سيدخلون واتجهت بهم الحافلة إلى مدينة (جانت) وهى مقابلة لغات

وتبعد عنها بحوالى ١٥٠ مائة وخمسين كيلو متراً. ولقد كانت ضمن الأراضى الليبية وتتبع غات. واحتلها الفرنسيون عام ١٩٠٨ وأعادها الليبيون عام ١٩١٦ ولم يمكثوا بها طويلا إذ استطاع الفرنسيون ارجاعها من جديد. وجانت شهدت مؤتمر لرؤساء دول الصحراء بخصوص التوارق وثورتهم فى شمال مالى. وقد دعا القذافى لهذا المؤتمر ١٩٩١ إلا أن الرئيس المالى موسى تراورى لم ينصع لنصيحة الرؤساء وركب رأسه قائلاً: (سيقضى على هذه العصابات فى خلال ثلاثة أشهر إلا أن انقلاباً أطاح به قبل هذا التاريخ).

بتنا فى ذلك الموقع بدون فراش إلا تلك الحصيرة. وبدون غطاء وبدون وسائد إلا أيدينا وعند الفجر استيقظت على رجل ملثم يحوم حولنا وينظر إلينا.

استغربت من منظره وتصرفه فعمامته التى يخفى بها أكثر وجهه عبارة عن منشف يلفه على رأسه وهى ليست من عمائم سكان المنطقة.

قامت المجموعة المرافقة لى واحضروا شيئاً من الشاى وبعض الخبز للإفطار.. جاء الرجل وجلس بجانبى وكشف عن وجهه إنه اللواء التهامى خالد رئيس الأمن الداخلى والذى تركته فى بنى وليد.

سلمت عليه بحرارة وتناولنا معاً الفطور وبقينا نتحدث عن شجوننا والصعوبات التى أوصلتنا إلى هنا كان مع التهامى اثنين من أقربائه وكان يحمل جوازاً عادياً.

ارتفعت الشمس والتجأنا إلى ظل الاستراحة وكان التهامى محبطاً يشكو من ضيق ذات اليد فقام الدكتور شاكير ودخل إلى الاستراحة حيث زوجته وأولاده واحضر مبلغا من المال دسه فى يد التهامى خالد.

كنت أتمنى أننى قمت بذلك ولكن مع الاسف كان حالى كحاله إلا أننى لم أشكو.

عند المساء جاءت الحافلة من جديد وشحنت المجموعة التى وافقت الجوازات على إدخالها ومنحتها التأشيرة وكان من ضمنها التهامى خالد ومرافقيه.

كلفت ابنى سيف بالعودة إلى الشاطىء لاحضار بقية العائلة بحيث ندخل

للجزائر معاً أو نبقى فى غات معا إلى أن يفرج الله فرجه.

وفى منتصف نهار اليوم الثالث جاء الضابط الجزائرى وأشار بأصبعه لى أنا وشاكير وهدى بأننا ممنوعين من الدخول للجزائر. فصاح شاكير وارغى وأزبد وهدد بالاتصال بالمنظمات الدولية والإنسانية والغير إنسانية وهدد بأن يسيرفى الصحراء بأبنائه الصغار وزوجته ليموتوا عطشا وتبقى وصمة عار فى جبين الجزائر.

أما هدى فقد أنزعجت هى الأخرى وذهبت مع الضابط لتشرح له وضعها.

وأنا لم أنبس ببنت شفه وتقبلت الأمر بصبر لأننى أعرف أن هذا الضابط عبد مأمور.. وجاء فى هذا الأثناء أحد الأقرباء من غات يحمل لنا قصعة غذاء طلبت من شاكير أن يشاركنى هو وزوجته فى الأكل وأقسمت عليه.

تناولنا الغذاء معا وقلت له ولهدى علينا العودة إلى غات وأن نستخرج جوازات سفر عادية ونحاول الكرة مرة أخرى ومن بوابة أخرى.

خرجنا من الاستراحة وطلبت من ابنى محمد أن يخاطب الموظف بالسفارة عبدالقادر الحبشى ويأخذ منه رقم هاتف السفير الجزائرى فى الرياض فهو صديقى لعله يتدخل لدى دولته.

محمد علاقته طيبة بالموظف فكلمه ليعطيه رقم هاتف السفير فاغلق هاتفه ولم يرد فقلت له اطلب السائق الذى أجاب ومنحه رقم هاتف السفير الجزائرى وابلغنى بأنه طردوه من العمل.

اتصلت بالسفير فكلمتنى السكرتيرة التى قالت إن السفير يتكلم فى هاتف آخر.

تركت عندها رقم هاتفى (الثريا) ليكلمنى إنه صديقى طيلة المدة التى بقيتها فى الرياض فلم يكلمنى السيد السفير حتى هذه اللحظة.

خرجنا من الاستراحة واتجهنا إلى غات حيث مررنا بطلحتنا نهار الأمس فوجدت اللواء حسين الكونى يجلس فى ظلالها مع يونس ابن الفريق أبوبكر يونس جابر.

سلمت عليهما وعرفت أن الجزائريين لم يسمحوا لأسرة أبوبكر يونس جابر بالدخول وكان معهم سائق عقيد أبوأصبع الذى تغدى معنا فرجعوا إلى الجفرة وفى الطريق وقعوا فى كمين وقتل العقيد أبوأصبع رحمه الله أما يونس فوصل إلى والده فى سرت وتم القبض عليه ولا يزال فى سجون المتمردين.

وقد طلب منى اللواء حسين بالخروج فوراً من المنطقة لأن المتمردين قد يصلون فى أى لحظة قادمين من غذامس.

■■■

عدنا إلى غات وآويت إلى منزل أحد الأقرباء فى انتظار قدوم العائلة واستقبلنى النساء بالبكاء عرفت عندها عمق الكارثة والمأساة التى تعرضنا لها. الكهرباء مقطوع. وبذلك جفت الآبار فالمضخات لم تعد تشتغل فصار الماء معدوما إلا من بعض الآبار القليلة فى غات التى يملك أصحابها مولدات كهربائية. وجفت الزراعة والخضراوات.. الطيور فى غات ماتت عطشا فلم تعد تسمع هديل الحمام ولم تعد تر طائراً فى غات.

اشتعلت النار فى سياج أحد المزارع المصنوع من جريد النخل وبقيت النار ثلاثة أيام تنتقل من سياج إلى سياج دون أن تجد من يطفئها لانعدام وجود المياه.

■■■

وصلت العائلة بسلام وأصبحنا عبئا على مستضافنا لانعدام المواد وانعدام المياه ومع ذلك بذلوا كل جهدهم فى توفير ما يلزمنا فجزاهم الله خيرا.

وبدأ التارقى وابنه وأحد أقربائه يساومنى فى أن أدفع ٢٣ ألف دولار ليدفع رشاوى للجزائريين ويسمحون لنا بالدخول.

بقينا عدة أيام على هذا الأمل.

وأخيراً قررت أن أطلب جوازات سفر عادية فعرض علينا موظفو جوازاتنا

بأن ندفع ١٠٠٠٠ عشرة آلاف دينار لكل جواز وبعنا السيارات بثمن بخس ولما أن العائلة كبيرة ولم يكن عندى المبلغ الكافى لشراء جوازات سفر لها رأيت أن تنقسم العائلة سيف ابنى وأسرته وأمه يرجعون إلى سبها لأن أمه لا تريد أن تفارق بناتها المتزوجات فى طرابلس وسبها.

وبقية الصغار اشتريت لهم جوازات سفر عادية وكتبت اسما مستعارا لى وكذلك فعل شاكير الذى دفع سيارته نظير الجوازات وفعلت هدى وودعت سيف وأسرته وأمه عائدين إلى المجهول وأنا وبقية العائلة سيبتلعنى القدر بأى مشيئة يراها وزود الصغار أخوتهم بزاد من الدموع والأسى والنشيج.

وبدأ ذلك التارقى وابنه وأحد أقاربه يترددون على فى أى ساعة من ساعات الليل بحجة أنهم لا يريدون أن يراهم أحد فى النهار.

وكانوا يعرضون خدماتهم مقابل مبالغ مالية باهظة ليست فى مقدورى دفعها.

وكنت قلقاً من تحذير حسين كونى بأن المتمردين قد يصلون غات فى أى لحظة.

اشتريت جوازات للأسرة كل جواز بمبلغ ١٠٠٠٠ عشرة آلاف دينار باستثناء جواز واحد احضره لى أحد التوارق فأصر على أن أدفع له ١٥٠٠ ألف وخمسمائة دينار منحة له على تعبه زيادة على العشرة آلاف دينار وازداد سعر الجوازات فيما بعد إلى ١٥٠٠٠ خمسة عشرة ألف دينار واردت تجديد جوازى الدبلوماسى فجاء ولد من الجوازات يحمل اختامها وختم لى ووقع مقابل ٢٠٠٠ ألفى دينار وتبين فيما بعد بأن تجديده لم يتم لأنه كرر نفس التاريخ السابق وكان توقيعه أغلى توقيع عرفته.

اتصل ذلك التارقى بأحد شيوخ التوارق فى المنقطة الجزائرية يدعى (غومه) وهو على علاقة بليبيا والليبيين ومن أصول ليبية.

وأعطانى كلمته فرحب بى وشكرنى على وقوفى واحتضانى للتوارق وهو يعرفنى بالسماع ويرحب بى فى (ليزى).

لم أقل للتارقى اننى اشتريت جوازات سفر ولما علم جاءنى يطلب مبلغ ٢٠٠٠٠ عشرين ألف دولار مقابل أتعابه مع أنه لم ينجز لى شيئاً.

اعتذرت له بأننى لا أملك المبلغ فانصرف وهو يتمتم بالتارقية وخشيت أن يوشى بى لأحد أو يتصل بالجزائريين ليمنعونى من الدخول. فتوجست منه خيفة. وكانت غات تخرج فى مسيرة كل ليلة تؤيد ثورة الفاتح من سبتمبر والعقيد القذافى وحتى عندما وصل المتمردون إلى غات أصر أهالى غات أن ينزلوا العلم الليبى بالنشيد وأن يضموه واحتفظوا به وتركوا السارية للمتمردين.

جهز لى ذلك القريب سيارتين صحراويتين قال إنه يثق فى السائقين فمع الأسف إن الثقة صارت متزعزعة من الجميع.

ركبت العائلة فى السيارتين لنتوجه إلى تارات وهو منفذ يقع إلى الشمال من غات بعيدا عن المنفذ السابق (تين الكم) الذى ارجعنا ومنعنا من الدخول.

المسافة إلى هذا المعبر تقدر ب(٦٠٠) ستمائة كيلومتر حيث تسير باتجاه العوينات ٣٠٠ ثلاثمائة كيلو متر وترجع باتجاه تارات ٣٠٠ ثلاثمائة كيلومترا.

ودعنا مضيفينا وشيعونا بالدموع نساء ورجالا ووقفت السيدة فاطمة الشيبانى تودعنى وهى توصينى بأن اتصل بهم عند وصولى. كانت تشنج وتكفكف فى دموعها بطرف ردائها لقد كان ذلك الوداع هو الأخير فلقد توفاها الله بعدنا بقليل.

واستعجل ابنى زهير وذهب إلى معبر (تين الكم) متوقعاً أن الجزائريين يسمحون له بالدخول فواجهوه باسم والده وحرفته وارجعوه إلى غات وقد وجدنا قد سافرنا فلحق بنا فى ليزى.

كان ايجار السيارة فى الظروف العادية ١٠٠ مائة دينار والآن طلب علينا السائقين مبلغ ١١٠٠ ألف ومائة دينار أجرة كل سيارة هكذا هو استغلال الإنسان لأخيه الإنسان فى ظروف بائسة كظروف الليبيين فى تلك الفترة.

ودعنا مضيفينا بحرارة وقد نلتقى وقد يكون آخر لقاء. انطلقنا مع الطريق من غات باتجاه العوينات كل سيارة نراها فى الطريق المعاكس هو عدو هكذا يقع فى تخيلاتنا.

كان جبل أكاكوس يحفنا من اليمين هذه المرة ولاح لنا من البعيد (كاف الجنون) بأعمدته التى صنعتها الطبيعة فى أعلاه وهى أشبه بأعمدة هرقل.

وتركنا مشروع تهاله يسارنا ترتع فيه بعض النوق ككل الأماكن المهملة.

ثم لاح لنا جبل آخر يبعد عن العوينات حوالى ٦٠ كيلومتر.

لم يواصل السائق السير باتجاه العوينات بل انحرف يسارا بدون طريق. وانبسطت أمامنا الصحراء برمالها الواسعة وكثبانها المترصة ولا أحد يصادفك ولا أحد تراه لو أصيبت السيارة بعطل تبقى إلى أبد الأبدين لا يراها أحد ولا ماء ولا شجر قال إنه سيختصر الطريق.

نحن نسير باتجاه جبال الرمال التى يقطعها القاطع بصعوبة وهى التى تفصل الحمادة الحمراء بوادى الأجال وهى التى يقطعها القادمون من غدامس بصعوبة ولابد من ايجاد خبير.

لقد أخبرنى حسين كونى أن المتمردين قد يصلون من غدامس فى أى لحظة.

قد ترمي بهم الكثبان فى اتجاهنا.

ليس معى إلا الأطفال الصغار والأولاد الثلاثة سعيد ومحمد وزيد وليس لدينا أى سلاح.

فإذا صادفونا سنموت كما يقولون (فطيسه) دون دفاع عن النفس.

السائق مركز عينيه على التيه الذى ادخلنا فيه. الأولاد الصغار يتجاذبون قنينات الماء وغير شاعرين بالخطر ويشتكون من بعضهم متزاحمين فى المقعد.

أما أنا فكل الأفكار السيئة تحيط بى ويكاد قلبى يسبقنى فى الطريق.

لا حديث مع السائق إذ ليس بيننا حديثا مشتركا إلا أن يوصلنا إلى تارات.

بعد لأى لاحت لنا شبه طريق ممهد قليلاً وغير معبد قادم من العوينات ومتوجه إلى تارات البوابة الجزائرية من الشرق إلى الغرب ينتصب كوخ حقير من جريد النخل أشاده رجال الأمن الذين يتابعون المنطقة ويحرسون حدود الوطن ويطاردون المهربين.

الكوخ بائس تلعب الرياح فى جنباته. لا يوجد أى شيء بجانبه لا خزان مياه ولا موقع اتصال. وهو عبارة عن سقف بلا جوانب. أين المسئولين فى الوطن الذين لم ينتبهوا لمعاناة هؤلاء الأبطال الذين يقاسون الحر والبرد ولفح الرياح فى كل الأوقات..؟ ماذا يخسر الوطن لو ابتنى لهم غرفة أو استراحة وزودوها بمولد كهرباء ومحطة اتصال..؟

إنه الإهمال وعدم الشعور بالمسئولية للرؤساء الذين يقبعون فى العواصم ويهملون أقاصى الوطن. الكوخ لا يوجد به أحد.

وجدنا الطريق واتجهنا معها يساراً وينطبق على قول قيس بن الملوح عندما يشاهد جبل التوباد حيث يقول:

فاجهشت للتوباد لما رأيته وكبر للرحمن لما رآنى

أصبحت جبال الكثبان الرملية على يميننا شامخة متغلغلة فى اتجاه الجزائر منطلقة من منطقة (زلاف) بالشاطئ.

وتتجمع الرمال فى أعالى الجبال الصغيرة التى يبرز أحجارها ناتئة سوداء بين بياض الرمال.

هذه الطريق أو هذا الاتجاه قطعه المجاهدون الليبيون عام ١٩٣١ هاربين من بطش الطليان وطيرانهم ومرتزقتهم من الليبيين.

قطعوها على ظهور الإبل والرجال يمشون حفاة يربطون بطونهم من الجوع ويتساقط الضعاف فى الطريق صرعى العطش.

فهذا المهمه من الصحراء لا توجد به مياه. فمن العوينات إلى تارات ٣٠٠ كيلومتر لا يوجد بها بئر واحد.

الإيطاليون بياناتهم يتتبعونهم وجنود الباندات من الليبيين الذين خانوا الوطن وخانوا أهلهم وذويهم.

وما أشبه الليلة بالبارحة نفس أحفاد الخونة بالأمس يتبعوننا اليوم خدمة للناتو ولمصالح الغرب ولمؤامراته.

انفجر اطار السيارة فانقطع حبل تفكيرى ونزل السائق وكذلك السائق الآخر وشرعوا فى تغيير الإطار.

استغليت الوقوف وصليت الظهر والعصر جمعا ودعوت الله أن ينجينا من خطر المتمردين. ولازالت عيونى مسمرة باتجاه الكثبان الرملية التى تحفنا من الشمال إن وراء هذه الكثبان مكامن الخطر.

تم تغيير الإطار السائقان يتجاذبان أطراف الحديث فالموضوع عادى عندهما إنهما رجال الصحراء الذين لا يأبهون بالمخاطر ولا تعنيهم المخاطر.

واصلنا السير حتى وصلنا إلى غرفة بائسة فى الصحراء بجانبها كوخ من جريد النخل إنها مقر الجوازات والجمارك الليبية.

المسئولون لم يفكروا أن يشيدوا مبنى يليق بسمعة الوطن ويضم العاملين فى هذا التيه الصحراوى.

لم أنزل من السيارة مخافة أن يعرفنى أحد وجواز سفرى باسم مستعار نزل الأولاد ومعهم الجوازات جاءنى ابنى سعيد ليخبرنى أن الشيخ الزناتى يجلس داخل الغرفة.

لم أنزل لرؤيته مخافة أن يفتضح أمرى ويفشل الخروج لتزوير الاسم.

كانت هناك شجرة طلحة كبيرة فى الأرض الحرام بين الدولتين تغرى بالجلوس تحتها وشرب الشاى ولكن أى نحن من الفسحة ومن الشاى.

اخذنا تأشيرة الخروج من الوطن إلى وقت لا نعرف مداه وقد نرجع وقد لا نرجع وانطلقت السيارات تودع آخر تراب الوطن إنها لحظة حزينة لا يدركها إلا من عاشها.

هناك على مرتفع يلوح مبنى واسع هو المبنى الجزائرى للجوازات والجمارك ورجال الأمن إنه مبنى يليق بسمعة دولة. قبل أن ننطلق جاءت سيارة خيمة تحمل فى صندوقها خزان وقود ملئ بالبنزين من الموقع الجزائرى واختفت تحت أكمة بجانب الموقع الليبى.

خرج لها أحد رجال الجمارك الليبية ولحقها وبعد قليل رجعت بدون خزان.

إنها تجارة التهريب يمارسها عمال الدولتين بين الحدود.

وصلنا إلى المبنى الجزائرى عشرات السيارات تقف خارج المبنى جزائرية وليبية.

أنزلنا حقائبنا تم تفتيشها بجهاز كشف المعادن وأى حقيبة يرن الجهاز مقابلها يوجب فتحها فنجد بها موسى حلاقة أو مشط حديدى أو أى شىء مقبضه من المعدن.

وادخلونا إلى غرفة بها اثنين من شرطة الجمارك واخرجنا لهما ما بحوزتى من نقود كان مبلغاً زهيداً قاموا بعده وسرقوا منه ٤٥٠٠ أربعة آلاف وخمسمائة يورو. حاولت أن احتج فانكروا المبلغ.

وكانت عند ابنتى الصغيرة نجود آلة تصوير أخذها منها الشرطى كما أخذ آلة تصوير أخرى عند ابنى محمد وأخذ ساعة يده مقابل أن يسمح لنا بادخال مبلغ زهيد بالعملة الليبية الممنوع دخولها للجزائر.

انهينا التفتيش وحرق الأعصاب وختموا لنا الجوازات وأظلم الليل فجلسنا خارج المبنى مقابل ثلاث سيارات كريزر (لبوه) ليبية سألنا عنها فقيل إنها للضابط الليبى شعيب الفرجانى.

فسألت الضابط الجزائرى لماذا لم تعطوه سياراته؟

أجاب مسكناها وقال لقد احضرنا محاسب من مصرف ليزى ليحسب الأموال التى عنده.

وانتهز الضابط الفرصة ليسألنى عن مفتاح كعيبه فقلت له إنه صديقى وكان أميناً فى الدولة الليبية.

قال لى لقد منعناه من الدخول مع أنه مريض بالسكر فادخلناه المستشفى ولما تحسنت حالته ارجعناه اليوم إلى ليبيا.

لقد تبين أن الذى رآه سعيد ابنى فى مبنى الجوازات الليبى هو الاستاذ مفتاح كعيبة.

لقد أصيب ابن مفتاح كعيبة بغيبوبة منذ الأحداث ولا يزال فى المستشفى بتونس وعومل مفتاح بغلظة من قبل الجزائريين ورجع إلى ليبيا ثم توجه إلى النيجر فصادفه قطاع الطرق وسلبوه كل ما عنده ووصل أخيراً إلى مصر فى ظروف سيئة.

وصلت للمقر مجموعة من الأتوبيسات الصغيرة وواحدة كبيرة صاح الشرطة فينا بأن نركبوا فى الشاحنة الكبيرة فهى مخصصة للاجئين.

سبحان الله قبل ساعات كنت سفيرا لليبيا والآن لاجئ.

فوجئت بالتارقى قريب التارقى الكبير فى غاث يسمى (فنايت) يبحث عنى ليسلم على. تشاءمت من سلامه وبحثه عنى وتوقعت أنه سيبلغ الجزائريين عن هويتى لأننى لم أدفع له المبلغ المالى الذى طلبه ولا أدرى ما موجب دفع المبلغ.

المهم مر الموضوع بسلام وكان ذلك اليوم هو يوم ١٦/ ٩/ ٢٠١١ نفس الذكرى لاستشهاد شيخ الشهداء عمر المختار وكانت القمر بدرا ينعكس شعاعها على صفحة الرمال البيضاء وكنت فى مثل هذا الوقف أكون رفقة مجموعة من الأصدقاء فى رحلة صيد بالحمادة الحمراء أو جبال الهروج.

واليوم ها أنا أبحث عن ملجأ.

سار بنا السائق وفى الطريق اتفقت معه أن يحملنا لأى فندق ولا يذهب بنا إلى محل تجمع اللاجئين الذى أوصاه الشرطة بأن يحملنا إليه وكان مقابل ذلك مبلغا طلبه السائق.

فى الطريق كانت أفكارى مضطربة أسير نحو المجهول مر من أمام السيارة ذئب أعجف لاشك أنه يقاسى ما أقاسى من الألم وشح المأكل إلا أنه حر طليق يستطيع أن يكيف حياته كما يريد وتمليها عليه الحياة وإذا ما عوى تستجيب له مجموعة من الذئاب تأتى لمساعدته وهنا يختلف موقفه عن موقفى.

فكتبت فى هذا الموضوع القصيدة التالية:

مناجاة الذئب الذى مر من أمامنا ليلاً فى صحراء (ليزى) بغرب الجزائر ١٦/ ٩/ ٢٠١١.

يا ذيب أنا وياك والدهر يا ذيب
انباتوا على طول ليلك ساهره
تعوى وياتوك عوج العراقيب[١]
ضوامر من الجوع يمشوا عصارة
سود السكافيل شيب الجراعيب[٢]
يجاوبوك يا ذيب من كل قارة
اضمار حرد لشداق يُبس الضنابيب
لهم وقت ما حلقوا عل مغاره

(١)...عوج العراقيب: هم الذئاب.

(٢)... السكافيل: أذناب الذئاب.

شيب الجراعيب: مقدمتها بين الرأس والصدر أشيب وتسمى (جرعوب)

بأنياب حربات فيد المحاريب

وصـف المخاليب ولـدوا بـداره

قدا أعواك يا ذيب ياتوا مقاريب[١]

انـداك فى ظـلام الليلالى ابشاره

وأنا انداى يا ذيب عقب التغاريب

ما جاوبه كـان صـوت الصحاره

ولاجـوا فـزاع فـوق المراكيب

من (بى) (للبارده) (لعين ماره)[٢]

ومن غلبة الـروم زيّى مكاريب

يهيفوا على الوطن يجلوا غياره

لا بردهم بيت لا قصر لا كيب[٣]

ولا سـور تشعل عليه الفنارة

ولا يردهم ردم وني الزراديب[٤]

ولا امترس القوم خلف الشكاره[٥]

يتراغثوا للشهادة مراجيب[٦]

---

(١)... مقاريب: يجرون جرى التقريب وهو نوع من الجرى وهو ليس بالسريع ولا بالبطىء.

(٢)... بي: وادى بى الشهير قرب بنى وليد

والبارده: أرض للحراثة قريب تيجى. ــ وعين مارة: بالجبل الأخضر.

(٣)... الكيب: هو مبنى بالقش. وفى الكلمة توريه لرئيس الوزراء بطرابلس والمسمى (الكيب).

(٤)... ردم: كوم من التراب (ساتر).

(٥)... امترس: الجندى المتمترس فى الأرض استعدادا للقتال الشكاره: أكياس الرمل.

(٦)... يتراغثوا: يتصايحون صياح الحرب.

مراجيب: فرحين بالشهادة.

كـل حـد فى مـارق الـديـن ثـاره

مشاخيب فى منتواهم مشاخيب[1]

أعـظـام يـكـسروا قـالات الجباره

شراهه اتقول يلعبوا بالمشاهيب

عقاب ليل فى ليل مظلم استاره

ينسوا التكادير والهـم والسيب

وبـوعـذر مـا تنفعاشى عـذاره

مغاضيب يتلاطموا فى مغاضيب

كـورة عـصـا طـايحـه فى عـزاره

وتسمع أمهاجاتهم والتهنديب[2]

قطا فـوق لـسراودايـر مـداره[3]

على القلب يا ذيب يجلوا منا شيب

مـغـاريـس هـى سـبـايـب دمـاره

ويطفوا سوامير نار اللهاليب

الـلى تحـت عـوج الحـنـيّـات نـاره

وإن جيت يا ذيب وين ترتع النيب[4]

---

(١).. مشاخيب: متجهين لهدفهم بسرعة فائقة وفى استقامة (مثل شخب الحليب من الضرع).

(٢).. المهاحاة: نشيد الحرب

التهنديب: اصدار الأوامر لبعضهم البعض والتوجيهات والتشجيع.

(٣).. لسراو: جمع سرى وهو الماء الجارى من النبع.

(٤).. النيب: الإبل الكبيرة فى العمر.

عبسها كما العطر فايح عطاره
وين أرضها امعورجه بالتعاجيب
أفكل واطيه ايفوح نور الشقاره[1]
هذاك نادى المزاغيم يا ذيب[2]
غير يتبعوا جيشهم فى مساره
وتبدوا على كل قاره مناصيب
اتراجوا اتقول شادين الغفاره
وأنا واقد النار شيخ التراتيب
فى املاطم القوم نرمى اخياره
صيعان يوم لمعيط مجاذيب
يهيفوا كما دلو طالت امجاره
وبالنار يحموا اديار المحاجيب
امّات البخانيق صابغ انياره
حجرى لفى بيه غزر ليشابيب
يسوى الوطى علوها بالحداره
الثار (ناديه) ما يفوتوا مطاليب
لن يخلص الكيل ثار العتارة[3]

(١)... الشقاره: نوع من الازهار البرية له رائحة ذكية.
(٢)... المزاغيم: الذين مضت عليهم مدة لم يذوقوا اللحم.
(٣)... ناديه العترى: قتلها المتمردون بعد أن قتلت منهم ثلاثة خلاصا لثار اخوتها الثلاثة الذين قتلوا فى المعركة.

وبوسيف قدام نار المشاريب[1]

قصود لجل يـوم المعامع ازراره

الياتاق لنذال يمشوا هراريب

من الخـوف يتلبدوا أفكل حاره

ويا ذيب لاشك تبدوا مخاضيب

فى دم خـيـان خـــاووا النصاره

ولاشـك نتلاطموا بالتراحيب

أنـا ويـاك يا ذيـب وسـط الجفاره

■■■

وصلنا إلى فندق صغير لاشك أنه بنجمة واحدة أو بلا نجوم وحجزت غرفتين فيه.

وقيل لى إن الفندق الآخر حجزه أحد أثرياء ليبيا بجميع غرفه وطلب عدم استقبال أى أحد به.

وذهبت الحافلة الكبيرة بركابها إلى مدرسة خصصوها للاجئين.

عند الصباح وضحت لنا صورة القرية (ليزى) معظم مبانيها بالحجارة المحلية دون أن يكسوها الأسمنت أو الجبس.

تتوسطها ربوة عالية مبنية عليها المبانى وهى بيوت شعبية متواضعة.

وفى وسط القرية حديقة مسوره كتب عليها حديقة (إبراهيم بكدا) وهو أحد مشاهير توارق الهقار وله مشاحنات ومعارك مع توارق غات وتوارق مالى ويعتبر من زعماء التوارق.

(١).. بوسيف: هو الشاعر.

والتقيت فى الصباح بأسرة خليفة حنيش ولده وأبناء أخيه وكنت متحمساً للعودة وتحرير البلاد وقلت لهم لم نأت لنأكل الخبز هنا علينا التفكير فى العودة إلى الوطن وتحدثت كثيراً ولم ينبسوا ببنت شفه.

الناس لازالت مصدومة والتقيت ببعض الذين باتوا فى المدرسة (الملجأ) فأخبرنى أن نقودهم تمت سرقتها.

وحاولت أن أرى (غومه) شيخ التوارق فى المنطقة والذى وجدت ابنه إبراهيم فى معبر تارات. وقيل لى إنه يرول هو الآخر التهريب. وبالرغم من أننى سلمت عليه وابلغته اننى قادم لأرى والده ولكنه لم يهش بى ولم يرحب ولم يقل أى كلمة تدل على الترحيب الأمر الذى جعل الضابط يقول: أنت قادم للجزائر وليس لغومه. بقيت عشرة أيام (بليزى) أفكر هل استقر بها أوانتقل إلى غيرها.

جاءنى العقيد عوض حنيش الذى هو على علاقة بالشيخ غومه وابلغنى أن غومه يبلغك السلام وإن الناس صارت تعرفك هنا وعليك أن تخرج من (ليزى).

حجزت لى وللأسرة من مطار (اين امناس) وهى منطقة ليبية ضمها الفرنسيون للجزائر أيام استيلائهم على فزان.

سرنا بالسيارات وكانت مشاعل النفط تلتهب على يميننا وعلى يسارنا تمزق حلكة الظلام.

حيث وصلنا إلى (اين امناس) ووجدت موظفا من البلدية فى استقبالى ورحب بى وتأخر اقلاع الطائرة ربع ساعة فى انتظارى فلهم الشكر. وقد قررت الأسرة حرق جوازات السفر الدبلوماسية لان عليها توقيع شلقم. وصلنا إلى الجزائر العاصمة بعد هبوط فى حاسى مسعود ووجدنا صديقا لابنى سعيد ينتظرنا حيث ساقنا إلى فندق صغير وجدت به أسرة موسى النداب وبعض الليبيين الآخرين.

حاولت أن أناقش معهم قضية الوطن والعمل من أجل إرجاعه إلا أننى لم أجد

أذاناً صاغية فالناس لازالوا مصدومين ويفكرون فى كيفية الإقامة والاستقرار.

بحث الأولاد عن شقة للايجار ووجدناها بصعوبة لأن فى الجزائر الأمور متشددة فلا يؤجر لك إلا بالإقامة والإقامة تحتاج لأكثر من عام لتجمع أوراقها وممنوع أن تشترى مسكنا أو تعمل فى الجزائر لكونك اجنبى أو أن تدرس بالجامعة المهم تم تأجير الشقة وهى متعبة لا تحجب ماء المطر ولا البرد.

بعد حوالى الشهر اتصل بى أحد مسئولى جبهة التحرير واسمه الصادق بوقطايه وبالرغم من أننى أخذت شفرة الجوال كما تقتضى المعاملات فى الجزائر بجواز سفرى وعقد مع البائع وباسمى المستعار إلا أن بوقطايه اتصل بى على الهاتف يسألنى أنت فلان اجبته بنعم فحدد لى موعدا للقاء وكان من المترددين على ليبيا التقينا وتحدثنا ورحب بى وهو يقول مرحبا بك فى وطنك الجزائر وطلبت منه دعمنا للعودة للوطن وطلب منى تقديم مذكرة بذلك وتعددت اللقاءات معه وأخيراً أحضر معه شخصا قدمه لى بان اسمه ميلود البغدادى عرفت فيما بعد أنه ضابط مخابرات وصار ميلود هو حلقة الوصل بينى وبين السلطات الجزائرية واختفى الصادق بوقطايه نهائيا فلم يعد يتصل ولا يرد على اتصالى ولا حتى تهنئتى بالعيد.

انقطعت الأخبار عن الوطن إلا ما تبثه الفضائيات ولم أعد أسمع عن العقيد القذافى منذ يوم ١٨/ ٨/ ٢٠١١ وتكثف القصف على سرت وهاجمها المتمردون من الغرب ومن الشرق إلى جانب صواريخ البوارج والطائرات.

وجاءت وزيرة خارجية أمريكا إلى طرابلس ونزلت فى مطار (معيتيقه) ذلك المطار الذى كان قاعدة أمريكية وطردتها ثورة الفاتح من سبتمبر عام ١٩٧٠ واليوم تعود منتصرة ويلتف حولها العملاء حيث يجعلونها تلقى كلمة فى فندق (كورنتيا) لتقول كلاماً بذيئاً سخيفاً لا يقوله عاقل فهى تقول إن القذافى يزود جنوده بالفياجرا وعلب المراهم إنه تفكير أمريكى تافه والقذافى وجنوده أرقي هذا المستوى المتدنى

الذى تحدثت عنه وزيرة خارجية أمريكا.

وهم ولا شك رصدوا العقيد حيث كثفوا القصف على سرت وسقط آلاف الشهداء من هذه البلدة المجاهدة وتهدمت الدور وبعد أن علمت رفض مسعود عبدالحفيظ قدوم العقيد لسبها صرت متيقنا أنه فى سرت.

وكنا نتتبع الأخبار وأعصابنا مشدودة وفى يوم ٢٠/ ١٠/ ٢٠١١ صباحا اتصلت بى ابنة صديقى اللادى بشير من تمنراست بجنوب الجزائر تعلمنى أن العقيد تنشر الفضائيات القبض عليه.

فتحت الشاشة وشاهدت منظرا مؤلما لا يتمنى أى إنسان ان يراه. العقيد القذافى تمزق ملابسه الغوغاء والدم يسيل من جبهته. ثم قتلوه وعرضوا جثته لعدة أيام فى ثلاجة بمصراته تلك المدينة التى أحبها وشيد عمارها وكان بجانبه أبوبكر يونس جابر وابنه المعتصم.

الذين كانوا يقدمون له وثائق البيعة ويتسابقون للمس يده للسلام عليه والذين علمهم ودربهم على السلاح ها هم يتسابقون لاظهار ولائهم للقادمين الجدد ويغالون فى شتمه وسبه ونسب كل نقيصة إليه.

لقد كان ذلك اليوم بالنسبة لى ولا غلب المهاجرين يوما مؤلما ومنظرا ما كنا نتمنى أن نراه وكان قبل أيام من عيد الأضحى الذى عزف الكثيرون عن الاحتفال به أو التضحية.

وأعلنت تونس فيما بعد إنها قبضت على رئيس الوزراء البغدادى المحمودى ذلك الرجل اذى دعم تونس وكان يمنح راتباً شهرياً للغنوشى وهو بالمنفى بناء على أوامر القذافى الذى يأمر بمساعدة كل المعارضين العرب رواتب حتى لا يسقطوا فى أيدى المخابرات الأجنبية وليحفظوا ماء وجوههم.

الغنوشى كافأ البغدادى بأن سلمه للمتمردين من الإخوان المسلمين فى طرابلس

وأودعوه السجن وعرضوه للتعذيب والإهانة مقابل ٢٠٠ مائتى مليون دولار كما سلمت مجموعة من الضباط تم تخديرهم وشحنهم فى سيارات الإسعاف إلى طرابلس ليعدموا هناك.

ولم تكن موريتانيا أكثر وفاء من تونس فرئيسها محمد بن عبدالعزيز الذى اتصلت به أنا شخصياً فى أول يوم من انقلابه هو وابن عمه على على معاويه ولد الطائع وعرضت عليه الاعتراف من ليبيا ودعمهم بما يحتاجون إليه وذلك بأوامر العقيد القذافى.

وذهب القذافى شخصيا لدعمه فى موريتانيا بعدما انقلب على ابن عمه وقاطع الاجتماع مجموعة المعارضة لأن العقيد طلب منهم الالتفاف حول محمد بن عبدالعزيز.

هذا الرجل قام بالقبض على عبدالله السنوسى وسلمه إلى المتمردين مقابل مليار وربع دولار كما تناقلت الأخبار وبعد أن وعد بعدم تسليمه وقام بعرضه للتحقيق من قبل السعوديين والفرنسيين والأمريكان.

وقامت النيجر بأسوأ من ذلك فرئيس النيجر دعمه القذافى للوصول إلى الحكم ووزير خارجيتها وهو من أصل ليبى كانت ليبيا تدعمه.

قام هذا العديم الوفاء بتسليم ابن القذافى الساعدى للمتمردين.

كما قام بتسليم الضابط عبدالله منصور بعد أن وعده بعدم التسليم وصرح له بأنه ضيفاً على النيجر.

كل هذه المآسى وغيرها من المآسى والحكايات المطولة سأتحدث عنها فى الكتاب القادم (أربعون شهراً فى الجزائر).

كما سأتحدث عن وصول عائلة القذافى للجزائر وعن تأسيس (الحركة الوطنية الشعبية الليبية) كوعاء سياسى لاسترجاع ليبيا.